

الترجمة جسر الإثراء المتبادل بين الثقافات *

د. محمد العربي ولد خليفة
جامعي

"نقلت كتب الهند، وترجمت حكم اليونان، وحُوِّلت آداب فارس، من أمة إلى أمة ، ومن قرن إلى قرن، ومن لسان إلى لسان، حتى انتهت إلينا (...) حتى شاهدنا بها ما غاب عنّا، وفتحنا بها كل مستغلق كان علينا، (لولا ذلك) لما حسن حظنا من الحكمة، ولضعف سبيلنا إلى المعرفة، ولكلّ الحدّ وتبلّد العقل".

(الجاحظ، كتاب

الحيوان-ج-1)

ازدهرت الترجمة في العالم العربي والإسلامي في الفترة ما بين القرن الأول والرابع الهجري وبلغت أوجها في العهد العباسي الأول حيث شهدت انطلاقة منقطعة النظر لنقل التراث الفلسفي والعلمي والأدبي لفارس واليونان والهند.

أسفر ذلك الحوار الثقافي الكثيف مع الحضارات القديمة ، على نهضة فكرية تبنيتها أو شجعتها الدولة، وظهرت تيارات فلسفية، وفرق دينية

* ألقى في الملتقى الدولي عن دور الترجمة في التبادل والتفاعل بين الثقافات الذي انعقد في بيروت. سبتمبر 2005 بدعوة من مؤسسة الفكر العربي.

تنادي بأهمية العقل في التعليل والتحليل والتفسير كما هو الحال عند المعتزلة والفلاسفة الإسلاميين الذين لم يروا أي تعارض بين أصول العقيدة والرجوع إلى العقل لاستقراء ظواهر الطبيعة وتوصيف أحول الدولة والمجتمع، وأسفر ذلك التلاحق عن طفرة سريعة وواسعة في علوم العقل والنقل، تواصلت لعدّة قرون وبلغت أوجها في مراكز الإشعاع الحضاري في المشرق والمغرب بما فيه الأندلس.

لقد انطلقت الشعلة الرئيسية من رسالة الإسلام في منطقة هي مهبط الأديان ومهد الحضارات الأولى، فأوقدت جذوة العرفان الروحاني وأطلقت العنان للعقل وشرّعت الحقوق الأساسية للإنسان وأبطلت الفوارق المبنية على الجنس والعرق والنسب.

رافق ذلك النقل المتواصل لعيون التراث الإنساني إلى العربية تسامح بين المذاهب والملل والنحل في إمبراطورية مترامية الأطراف تمتد على ثلاث قارات، وتعج بالأعراق والأديان والتقاليد الثقافية والألسن، وقد خصص الأستاذ آدم ميمز جزءاً من دراسته الهامة عن الحضارة الإسلامية في القرن الرابع لمسألة التسامح في تلك الفترة وأشار إلى أن الدولة الإسلامية هي نموذج في التاريخ حُكّم فيها غير العرب وغير المسلمين العرب والمسلمين.

ليس في التّية رسم صورة مثالية لتلك الفترة الاستثنائية فقد عرفت حركة الترجمة ردود فعل متباينة فقد اعترض عليها البعض حرصاً على نقاء العقيدة ورأوا فيها مدخلاً للزندقة والانحراف، ومن الإنصاف أن لا نضع كل الفقهاء والفلاسفة من أبي الحسن الماوردي إلى ابن رشد الحفيد، في قائمة المعارضين أو المشاركين.

كما أعترض عليها البعض الآخر، بحجة حماية اللغة العربية من الدخيل من الكلمات وحفاظاً على خصائصها الأسلوبية وجماليتها التعبيرية، كما حدّر الجاحظ من ذلك في بيانه وتبيينه، وكثير ممن جـاءوا

بعده حتى عصرنا الراهن مع العلم أن الجاحظ استفاد من جهود الترجمة في آثاره العلمية والأدبية.

حدثت نفس الحركة أثناء الإرهاصات الأولى للنهضة الأوروبية، في اتجاه معاكس، أي ترجمة التراث العلمي والفلسفي من العربية إلى العبرية واللاتينية في حركة تواصلت لأكثر من ثلاثة قرون، وبينما كان العالم العربي والإسلامي، مشرقاً ومغرباً، يتدحرج نحو الركود والانغلاق وتنتشر فيه الفتن وحروب الطوائف، ويتراجع على كل الجبهات، عكفت أوروبا في إماراتها وممالكها على ترجمة آلاف الآثار واستعادت روائع التراث العلمي والفلسفي الإغريقي، بعد أن غطى عليه غبار الجهل والنسيان لأمد طويل.

يمكن القول بأن التراجمة في العهد الإسلامي الزاهر ضمنوا تواصل المعرفة بين العالمين القديم والحديث، ومن المعروف أن الكثير منهم من غير العرب والمسلمين، ولكنهم شاركوا بفعالية في حضارة كانت تنصدر موكب الحداثة والاتصال المتسامح، بمقاييس تلك المرحلة من التاريخ.

من المهم كذلك الإشارة إلى أهمية حركة الاستشراق في التفاعل بين الثقافات الأوروبية (بما فيها روسيا ثم الإتحاد السوفياتي لاحقاً)، والعربية الإسلامية، وبغض النظر عما وراء حركة الاستشراق من أهداف جيو - سياسية تبغى التوسع والهيمنة، ومهما كانت التأويلات والاستغلال السياسي لأعمال المستشرقين، وما انتهى إليه بعضه من أحكام عن "عقلية" سكان المنطقة ومجتمعاتهم ونزعة الاستعلاء ودوافعه الاثنوسانترية التي ترجع إلى صدامات قديمة، فإنه لا يمكن إنكار ما أضافه المستشرقون من مناهج ومقاربات وحتى إيقاظ ذاكرتنا وإعادة إحياء تراث علماء وفلاسفة من أعلى طراز مثل ابن خلدون وابن عربي وابن الهيثم والخوارزمي.... الذين بقوا نسياً منسياً حتى تُرجمت آثارهم ودُرست مؤلفاتهم في أوروبا.

لقد وجه الأكاديمي، فقيد الفكر الجسور إدوارد سعيد نقدا شديدا لحركة الاستشراق في كتابين من أهم المدونات في الموضوع، هما "الاستشراق"، و"الثقافة والامبريالية"، وهو بلا ريب محق فيما ذهب إليه، إذا وضعنا آراءه في سياق الموجة المضادة التي تنذر بصراع الحضارات وقنابله الموقوتة في الفكر الأرو-أمريكي والإجحاف والنكران الذي تتعرض له المنطقة من قبل بعض النخب الفكرية والسياسية الغربية التي أصدر بعضها أمرية تنهي التاريخ وتستخف بالتراكم المعرفي الذي ساهمت فيه أمم وشعوب متعاقبة عبر حقب التاريخ.

استعادت حركة الترجمة بعض حيويتها بعد سبات عميق، واعتبرت من مؤشرات بداية النهضة العربية في العشرينات الأولى من القرن التاسع عشر، واتجهت إلى إرسال البعثات لإتقان اللغات الأوروبية وكان لمحمد علي حاكم مصر قصب السبق من الناحية التنظيمية والمؤسسية، وهناك مجهودات هامة ظهرت في عدد من بلاد المنطقة ومنها أقطار الشام والمغرب العربي، وقد شهدت بدايات القرن العشرين تصاعد النزعة القومية ضد ما يسمى التتريك، وما يتطلبه ذلك من عناية بالعربية وتغذيتها بالمصطلحات والتعابير التي أشاعتها الصحافة على نطاق واسع.

وفي الجزائر بالذات التي كانت تزح تحت الاحتلال الاستيطاني قام الأمير عبد القادر بمحاولات للاقتباس والتحديث سرعان ما أجهضتها إدارة الاحتلال، كما حاول بعض أفراد النخبة أو ما سُموا بالمتطورين (évolués) ابتداء من النصف الثاني من القرن 19 نقل المناهج التعليمية وترجمة بعض النصوص الأدبية، قبل أن يتجه العديد منهم إلى الدفاع عن قضيتهم الوطنية والتعريف بها باللغة الفرنسية وخاصة في الفترة ما بين الحربين وما تلاها.

إنّ كابوس الاحتلال الذي جثم على صدر الجزائر جعل الأغلبية من النخبة الوطنية القليلة

العدد، ترفض التفاعل مع ثقافته الحديثة والمتفوقَة

إذا كانت تستهدف الاستدراج نحو الذوبان وطمس الهوية العربيّة الإسلاميّة للجزائر. على الرغم من أن ازدهار حركة الترجمة، علامة لا تحظى على التفاعل الثقافي، وأحد بوادر النهضة، فإنها ليست إلا رافدا لها، فالنهضة إما أن تكون شاملة لمختلف هياكل الدولة والمجتمع أو لا تكون، وفي دروس النهضة الأوروبية ما يؤكد ذلك، فقد التقى فيها الإصلاح الديني وصعود البرجوازية أو ثقافة المقاومة، كما يسميها "ماكس فيبر" وتولت قيادتها نخبة فكرية وسياسية في السلطة أو حولها، توصلت إلى نشر مفاهيم العلم والتعامل مع التقانة أساس حركة التصنيع والاختراع المتواصلة إلى اليوم، وتوسّع المدينة على حساب الريف، وظهور قيم جديدة تسوس العلاقات بين الأفراد والجماعات، وتقبل الناس بلا إكراه لأسلوب أو فن جديد للحياة (Art) de vivre.

قام العديد من الباحثين والمؤسسات الوطنية والبيّن عربية والدولية، بتقييم وجرد حصائل الترجمة خلال النصف الثاني من القرن العشرين، واتفق أغلبهم على أنها من حيث الكم حصائل هزيلة، بالمقارنة بعدد من البلدان النامية أو التي هي بصدد الإقلاع (Emérgents)، ومن آخرها تقرير التنمية البشرية في البلاد العربيّة، وهو يثير حتى بعد التعديلات التي أدخلت عليه الكثير من الحسرة والأسى على العزلة المعرفية التي تعاني منها مجتمعاتنا، والعالم يعبر من قرن إلى قرن، فيه من البشائر بقدر ما فيه من الإنذارات عن سطوة العلم والتكنولوجيا في عصر الجينوم والهندسة الوراثية والاكتشافات المتلاحقة للعالمين الأكبر (Macro) والأصغر (Micro).

لا شك أن شرائح من مجتمعاتنا قد تأثرت بالمنتوج الثقافي المنقول إلى العربية أو الذي تتلقاه مباشرة عبر الصوت والصورة، أو المكتوب في لغته الأصلية، ولكنه تأثر في أغلبه استهلاكي، مصحوب أحيانا بالانبهــــــــــــــــار،

وأحيانا أخرى بالنفور من الثقافة الأصلية التي توصف بالمتخلفة أو التقليدية والرغبة في الهروب إلى الآخر وانتحال أفكاره وسلوكاته، بدل استيعابها والانطلاق منها لتوطين المعرفة والتحكّم في التقانة ثم إنتاجها، كما هو الحال في بلدان ما يعرف بالعمور الآسيوية.

إن التفاعل الثقافي بين ثقافتين يكون أساسا عن طريق الأخذ والعطاء، أو على الأقل التمهيد للعطاء، كما حدث في عصر النهضة الأوروبية، وما أعقبه من إشراقات الأنوار التي شملت غرب أوروبا كلها وليس فرنسا فحسب، وأنتج قسما هاما مما نسميه اليوم الثقافة العالمية (universelle) ومدوّنتها الكبرى في الفلسفة والعلم والأدب (Les classiques) وهي التي عبّدت الطريق إلى العولمة والشمولية وطوفانها الذي يغمر كوكب الأرض بعد أن وفرت التكنولوجيات وثورة الاتصالات الوسائط العابرة للمحيطات والقارات.

لا ينبغي عند تتبع التفاعل الثقافي، أن نستهيئ بالحركة الجارية في الجامعات ومراكز البحث ومؤسسات الترجمة المتناثرة هنا وهناك، وعلى الرغم من المصاعب الموضوعية التي يواجهها المختصون والمؤسسات المعنية، وتجعل الحديث عن الترجمة أكثر من منحزات الترجمة نفسها، فإن القلق من الوضعية الراهنة يمثل خطوة أولى للخروج من النفق والدوران حول إشكالية النقل من وإلى العربية وحلّ معضلة الحوار والتفاعل مع الثقافات الأخرى دون الذوبان فيها، أو البقاء عالية عليها أو ترديد مقولاتها أو القدح فيها والاكتفاء بلعنها من فوق المنابر ووسائط الإعلام.

بعد أكثر من نصف قرن على رحيل الكولونيالية المباشرة، فإن إرادة التقدم والتفاعل مع الثقافات والتحكّم في لغاتها متوفرة بين شرائح عريضة في كل المجتمعات العربية، غير أن المردود المعرفي لا يرقى إلى مستوى حاجات بلداننا وطموحاتها، وما يجري في العالم من حولنا من تنافس من

أجل المكانة الدولية والتفوق في تكوين وقود القوة وهو الثروة البشرية: المورد الوحيد المتحد.

إننا في حاجة ماسة لوضع سياسة لإتقان لساننا العربي المبين وأخرى تعنى باللغات العالمية ضمن إستراتيجيات وطنية وعربية طويلة المدى، لا تخضع للأهواء والتقلبات الطارئة، للتفاعل بثقة في النفس ودكاء مع روائع المنتج الثقافي، لنكون فاعلين، وليس مجرد منفعلين، نتعامل برّد الفعل، وأحيانا بعد فوات الأوان.

نحن نرى مع الأستاذ أنور عبد المالك، أن الترجمة جسر ممتاز لتعويض أجيال الحاضر والمستقبل عمّا فاتنا من محطات قاطرة الحضارة المتسارعة وإمداد لغتنا العربية الجميلة برصيد لم تشارك فيه إلا بالنزر القليل طيلة القرون الخمسة الأخيرة، وإعادة تأسيس رأي عام ثقافي لا يكره الآخر ولا يخافه، قبل أن يتعرف عليه ويميّز بين غثه وسمينه.

يجد المتابع لواقع الترجمة وتأثيرها في تشكيل الخطاب الفكري العربي قائمة طويلة من المؤتمرات والندوات والمنشورات التي تصدرها هيئات الجامعة العربية ومعاهد أو كليات الترجمة التي لا تخلو منها أغلب الجامعات العربية، وهي تقدم في كل مرة تشخيصا لجانب من إشكاليات ذلك الواقع أو تضع تقييما للحصيلة، ولكن التشخيص السريري (الاكينيكي) ما يزال ينتظر العلاج الشافي.

إن المعايير غير المرضية لا ينبغي ، تتوقف عند عمليات الإحصاء لما نقل إلى العربية حتى بداية هذا القرن، وهي معايير تكشف في كل الأحوال عن مدى غياب مؤسسات الترجمة في منظوماتنا الثقافية العربية، بل ينبغي أن تشمل المعايير كذلك الترجمة من العربية إلى اللغات الأخرى، وهي تبدو أكثر نشاطا وأوسع نطاقا في الغرب، هذا فضلا عما يصدر هناك من دراسات استقرائية متخصصة في شؤون وشجون

علمنا العربي تنشرها حوليات متخصصة، وأخرى تظهر في مجلات وصحف موجهة للجمهور الواسع.

لا شك أن لتلك الترجمات والمتابعات تأثير في نظرة وتعامل قادة الفكر والسياسة والرأي العام في الغرب مع بلادنا العربية، ونظرا لعدم التوازن في كم وكيف المنتج الثقافي بين ضفتي المتوسط وما وراء المحيط، فإن المرجعية الغالبة تعود دائما للمنتج الأقوى والأكثر غزارة.

وإذا كنا قد أشرنا إلى أن النهضة والإفلاح الحضاري عملية شاملة تقوم على مشروع ثقافي جسور تتبناه شرائح من النخب القيادية وتتولى إنجازه إرادة سياسية لا تتوقف في منتصف الطريق كما فعل خلفاء الأمير محمد علي حاكم مصر بعد وفاته، فإن التخلف أيضا حالة كلية أو عامة تخدّر جسد الأمة وتعطل حراكه، وتبدّد طاقاته فيما لا يفيد من صراعات ومجادلات.

إن الترجمة باعتبارها الجسر الممتد بين الثقافات والأداة المثلى لتجاوز حاجز اختلاف الألسن وفواصل الزمان والجغرافيا، قد ساهمت بقدر كبير في التفاعل بين الثقافات في كل العصور، فلا توجد في أية ثقافة أو حضارة بداية من نقطة الصفر، قد تكون في حقبة معينة ثقافة مهيمنة وأخرى في حالة كمون، ولكن الثقافة التي تحمل راية المقدمة لا تستأصل جذور وخصائص الثقافة الكامنة، إلا في حالات نادرة، مثل التطهير العرقي أو الإبادة الجماعية لأمة بأكملها، كما حدث على سبيل المثال في شمال أمريكا وأستراليا.

في بلادنا العربية، وعلى الرغم من مرحلة المخاض العسير التي تعبرها الأمة، والأزمات والانشطارات الداخلية، فإن الطريق ليس مسدودا نحو مستقبل تصنعه بعقول وأيدي شبابها، إن موجة الإرهاب الحقيقي والإرهاب الذريعة وتيارات التطرف المتغطي بالإسلام دين الرحمة والتسامح، قد ساعدت على تنامي الكراهية والتخويف بالمسلمين

وبالإسلام كما هو الحال في ادعاءات الإسلاموفوبيا والزينوفوبيا التي سوف تكون موجات عابرة على أغلب الظن.

لم يثبت أبداً أن التقدم والازدهار حكر على عرق أو ملة أو حيز جغرافي كما أن انطلاق التحديث من التراث والعقيدة لا يعني إصاق أحدهما بالآخر بطريقة تلفيقية، أو لإرضاء هذه الجهة أو إغضاب تلك، ولكن عن طريق مراجعة شجاعة لواقعنا الراهن، واكتشاف نخبنا المفكرة والسياسية لمشروع مجتمعي يستجيب لمطالبات العصر ويهيئ لإصلاح حقيقي يبدأ بالعقلليات ليخلصها من القيم السلبية المتوارثة عن عهود الانحطاط الثقافي ورواسب الحماية والاحتلال.

إن ذاتنا الحضارية ينبغي أن تبقى ناصعة ومتفتحة على حداثة منتجة، وليس حداثة استهلاكية، تكون في النهاية مجرد سوق جانبية لحداثة وافدة واثقة من نفسها وهجومية.

إننا على يقين بأن التفاعل المثمر بين الثقافات عن طريق الترجمة والوسائط الأخرى، هو أمر ممكن ومرغوب فيه، وضرورة تنسجم مع منطق الواقع وصيرورتنا التاريخية.

إن الأغلبية من العرب والمسلمين لا يكتون للغرب أية كراهية دينية أو إيديولوجية، فالعالم المعاصر يدين للغرب، وتقريبا للغرب وحده، بمعظم الإنجازات العلمية والفكرية والفنية والتكنولوجية، ولكننا لن نكون أقل تنديدا بالاستعلاء والأنانية وفرض القالب الأوحده، من ذوي الضمائر الحية في الغرب نفسه.

المراجع

1. الجابري، م.ع: "بنية العقل العربي" – بيروت 1986.
2. الجاحظ (أ.ب)، كتاب الحيوان ج – 1
3. الجميلي، م.ر: "حركة الترجمة في الشرق الإسلامي في القرنين الثالث والرابع الهجري" – طرابلس 1982.
4. أنيس. أ: "اللغة العربية بين القومية والعالمية"، – دار المعارف القاهرة 1970.
5. بلاطة عيسى: "تحديات الأصالة الثقافية" – مركز دراسات الوحدة العربية العقد العربي القادم 1986.
6. قحّة ك: "الترجمة في العصر الحديث تاريخها وقضاياها"، بيت الحكمة، تونس 1989.
7. ديداوي، م: "الترجمة والتواصل" – المركز الثقافي العربي – الدار البيضاء 2000.
8. مركز دراسات الوحدة العربية: "الترجمة في الوطن العربي" – بيروت 2000.
9. مزيان .ع: سلفية الإصلاح والتجديد عند جمال الدين الأفغاني" – منشورات م. إ. أ 1999.
10. هاشم . ص: "دور الترجمة في تشكيل الفكر العربي" – م. الوحدة 1989.
11. Appadurai, A. : modernity at large ,univ of Minus1997.
12. Bayart,(J.f) : L'illusion identitaire, Fyard, Paris 1996.
13. Bourdieu, (J.p) : le sens pratique , ed. minuit, Paris 1980.
14. Braudel, (f) : grammaire des civilisations, A.flammarion, Paris1987.
15. Hennebelle, (G) : le tribalisme planétaire, A.corlet, Paris 1992.